الفصل السادس

دُمْيَـــةُ الْعَصـــرِ

حين كُنْتُ أقرأ السِّيرة النبوية ، مراراً وتكراراً ، كُنْتُ أتوقف فيما أتوقف عنده ـ مع دُمى « عائشة » ـ رضى الله عنها ـ التى حملتْها معها إلى بيْتِ النبوّة ، أو (عرائسها) كما قيل فى ذلك ، تَدْليلاً من الراوين على صِغر سِنّها حين بنى بها رسول الله ﷺ ...

فكُنْتُ أذْكُر طفُولة البنات حين كُنَّ يصنعْنَ من بعض قطع القماش أشكال « دُمَىً » و « عرائس » ، ويبدو اهتمامهُنَّ بهذه الأشْكال مُنْصبّاً على ناحيتيْن : شكلاً وموضوعاً ، أما (الشَّكْل) فمن ناحية الرَّأس حين يكْسينَهُ شعراً مختلفاً ألوانُه ، ويُسَرِّحْنَهُ تسريحات شتّى ، ويرسُمْنَ الْفَمَ باللَّوْن الأحْمر ، وكذلك الوَجْنتيْن ...! ثم يَخطُطْن الحواجب بدقّةٍ وآعتناء ، ويجمِّلْن كل ذلك قدْر استطاعتهنّ ومعرفتهن .

وأما مِنْ ناحية (الموضوع) فيتخِذْن لها ما يُشبْه الفِراش والدِّثار والوِسادة ...؟! فإذا مَلَلْنَ (اللَّعب) وَضَعْنَ تِلْك (العرائس) فى أحضانِهنَّ وربتْن عليها بأيديهِنَّ تربيتاً خفيفاً ، وكأنّهُنَّ يُساعِدْنها على النَّوم والإخلاد لِلرّاحة بعد عناء المداعبَة والملاعبة ، ثم يضعْنها فى فراشها وينصرفْن عنها إلى أعْمالِهِنّ !!!.

وهذا قَبْل أن تَنْتَشر الدُّمى المتقنة الصُّنْع ، الجاهزة فى حوانيت الألعاب والتَّسْلية ، والتى تزداد مع مرور الزَّمن خبرةً فى الإعداد واكتمالاً فى الإتقان ، إذ منها اليوْم الضاحك والباكى والناطق بكلمتىْ (بابا) و (ماما) ، والسائر خطواتٍ ...، أو التى تقفل العينيْن عند التمدُّد وتفتحهما عند الجلوس أو الوقوف ... إلى آخر ما هُنالك من ابتكاراتٍ واهتماماتٍ وتطورات .

وممّا هُو جدير بالملاحظة فى هذا الشّأن أنّ الفتاة التى (تلْهو) بدُمْيتها لا تكتفى لها بِزِىٍّ واحدٍ بل تتخذ أكثر من لباسٍ ، تضعُها جميعاً فى عُلْبةٍ ، أو غيرها ، بترتيبٍ وعناية ، ثم إنها إذا أرادت أن (تُغيِّر) لدميتها ثَوْبها ، فلا تنزع

عنها ما تُلْبسها بحضور الحاضرين ، بل تنْتحى بها جانباً ... !! .

وأيضاً ...، فإنها تتخذ لها أثواباً داخليّة ، شأن الأحْياء !!!.

إذاً ... فالدُّمى ، أو العرائس ، قديمةٌ جدّاً ، ومعرقة فى التاريخ ... حتى من قَبْل (دُمى) « عائشة » ـ رضى الله عنها ـ استمرَّتْ قروناً وأجيالاً ؛ وما أظُنُّها نبتتْ فكرةً فى رأس إنسانٍ إلّا من خلال نُضوُج مفهوم الأُمومة ، وما سُمِّيتْ (عرائس) إلا بحكْم المنطق الحياتى الذى سوْف تَؤول إلَيْه كُلّ فتاةٍ يوْماً ما ، يوْم تكونُ (عروساً) عِنْد الزفاف .

لكن هذا المفهوم الحياتىّ الأصيل ـ فى الموضوع والشّكْل ـ فى غَرْس (رسالة الأمومة) فى قَلْب الفتاةِ ووجْدانها ، منذ بدء الوعى والتفتّح على الدنيا وأشيائها ومسمّياتها ، ثم الاستعداد الذهنى والعقلى لمرحلةٍ حتميّةٍ لهذه المهمة بالزواج ، وإضفاء طابعٍ من الجمال المصطنع لامتلاك قلب الزّوْج وعقله ، بالزينة وغيرها .

هذا المفهوم كان يفْقد من خلال الخطّ البيانىّ للإنسانية ذروة الصّعود وبلوغ القمم أحياناً ، فلا نراهُ إلّا هابطاً منحدراً ، وذلك عِنْدما يُهْمل (المحتوى الموضوعى) ، ويَغْفل عن (الرسالةِ الأصيلة) ، ولا يرى فى (الأُنثى) إلا جانب (الشّكل) !!.

الجانب الذى يثير الغرائز الحيوانية ، وجماع الشهوة ، ويُغطّى بدخانه الأسْود ، ولَهيبه الأحمر ضوء الحقيقة الإنسانية ، وفضيلة الرسالة .

ولسنا فى معْرض الحديث المطوَّل الشامل عن الأمَم أو الفتراتِ التاريخيّة والحقب الزمنيّة التى تدنى فيها الخط البيانى بالنسْبة إلى فقدان التوازن فى النظر إلى كيان (المرأة) .

ويكيفينا أن نَعْرِضَ لواقعٍ تاريخىٍّ واحد للتدليل على ذلك ، فالْقَصْر الرومانى بقانونِهِ الشهير ..؟ وحضارتِهِ الرائعة . كما يُدَّعى ويُقال ـ رغم تبوُّئه فى التاريخ القديم ، قبل الميلاد ، مركز الصّدارة بيْن الأمَم القديمة ، الفارسيّة واليونانية والفرعوْنية ...، قد وقع فى أُحْبولةِ اللَّذّة وشراك الشَهوة ، من حيْث (زيّن) له الشيطان سُوء عمله ...، فاتّخذ من جَسَدَ المرأة تمثالاً ومثالاً !!!.

(تمثالاً) يعكف عليْه ويحتذيه ويَنْحت أجزاءه الشكليّة بدقّةٍ وعناية ،

(ويزيّنه) بكل براعةٍ ، حتى سُمِّى هذا العمل (فنّاً) زوراً وبهتاناً ، و ... افتراءً !!.

كما اتّخذه (مثالاً) فى واقع دُنياه ، ومناحى معاشِهِ وحياته ، فى عُرْي ... وزينةٍ ...، وحلي ...، فى البيوت ...، وفى القُصور ...، والأندية والملاعب وكُلّ مكان ...

وتَحضُرُنى قِصةُ أسْر (زَنُوبيا) ملكة (تَدْمُر) ، فقد قيل إنها بعد محاربتها للرومان ، ووقوعها فى الأسْر واقتيادها إلى (تَدْمُر) ، فقد قيل إنها بعد محاربتها باب الإكرام لمقامها الملكىّ ، هكذا تروى لنا كتب التاريخ ...، غَيْر أن الواقع المستخلص من الحادثة لا يَعْدو حقيقة (الزينة)!!!، فقد كانَتْ (زنوبيا) على جانب عظيم من الجمال الفاتن ، وكانت ترتدى إذْ ذاك الزىَّ الرومانى ، الذى يكشف عن مفاتن الجسد أكثر مما يَسْتُر ، فما زادها القَيْدُ الذهبىُّ (هيبة مقام) بقدْر ما زادها (فتنةً) وإغراءً ، وأضْحتْ بهذا التصرُّف (مثالاً) ...! وهذ ما أرادهُ الرومان ، بحُكْم المفهوم المألوف والعُرْف المتّبع لا أكثر ولا أقلّ .

وفى العصْر الحالى ، عَصْر القرنِ العشرين بحضارتِهِ المادّية وتفوُّقِهِ العلمى نرى أن الإنثى ككيانٍ إنسانىّ نادراً ما تحْظى فى الفكر العالمىّ عامّة بمختلف وسائله وأساليبه فى الإعلام والنشر والتوجيه ، بقسطٍ من الاهتمام لحقيقة دَوْرها ورسالتها فى الحياة .

لقد أُغْفل (الموضوع) أو (المحتوى) إلى حدٍّ كبير ، وعُكِفَ على (الشَّكْل) ...، إذ طَمَتْ دُور الأزياء ، وتعدّدت مصانع الزينة ، وأنتجتْ مختلف الابتكارات ، وعمّت البلْوى ...

وإنى لألحظُ أحياناً مايُقدَّم لِلأُنثى ، من غذاءٍ فكرىّ وعقلى وعاطفى من خلال المجلّات الخاصّة بها ـ كما يُقال ويُعلَن ـ فأجد أبوب الاهتمام بالشَّكْل من ناحية الأناقة والزينة والرشاقة وغيرها ، تُغطّى أكبر مساحةٍ ...، وقليلاً ما تستخلص (الأنثى) دَسَماً ، بل نجد أكثر المعروض سُمّاً ناقعاً .

ولقد راج مألوف (دُمية العصْر) عُرْفاً وتقليداً ، وسرى بحُكْم قصر المسافات وسُرْعة المواصلات فى شَتّى أرجاء العالم ، فما من مبْتكرٍ مُستحدث إلا ونراهُ قد بلغ أقصى الأرض فى سُرْعة البرق ...

ومُسِخَتِ (الدُّمية) أيْضاً فى صورة (وسيلة) من وسائل الإعلان لترويج أىّ بضاعة ، ومطلق صِنْفٍ من الأصناف ، مُسْتَغِلَّةً الصُّورة من جوانب الإثارة الجنسيَّة ، فتبدو فى ذلك محشورة حَشْراً من غير داعٍ ولا ضرورة ، وما عليْك لملاحظة هذه الظاهرة سوى مشاهدة إعلان واحد فى التلفزيون أو الجرائد والمجلات !!!.

أيُّها المجْتمع !! قِفْ ... وانْتَبِه !

نخاطب (المجتمع) ككُلٍّ لأن المسئولية ليست فَرْديّة فقط ، ونخاطب (المسئولين) عن هذا المجتمع لأن بيدهم سلطة التنظيم وسلطة التَّنْفيذ ؛ كما نخاطب فى (الفرْد) ـ أخيراً ـ ضميره الاجتماعىّ ككائنٍ حىٍّ متفاعلٍ فى محيطه الخاص والعام ، فى نطاق الأسْرة الصغيرة والأسرة الكبيرة ..

نطالب بجديّة وإصرار وحزم ؛ وصدقٍ وإخلاص ... بوقفةِ مراجعةٍ للتاريخ ـ مدرسة الأمم والشعوب ـ ونظرةٍ فاحصةٍ إلى الواقع مجرَّدةٍ عن الهوى والأنانية ، ومَوْصلةٍ بالله عزّ وجَلّ ، ترتبط فيها الدنيا بالآخرة ، وهَوْل يوم الموقف والحساب ، حيثُ تُجزى كُلّ نَفْسٍ ما كسبت !!!.

لقد هبَّ إعصار (التقدُّميّة) علينا مُنْذ أمدٍ ليس بالبعيد ، وفى غفلةٍ منا عن عقيدتنا ونظامنا ، عن مقوِّمات وجودنا وتميُّزنا ...، كمن يبنى بنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ ...، أو يتخلّى عن حِصْنه ويقف فى العراء ...، أوْ يخلع عنه ما يقيه الحرّ والقرّ ...، فكانَ بهذا أهْون على موجة الريح العابر فَضْلاً عن الإعصار المتلاحق العاتى .

وتحت شعار هذا الإعصار ، وضَغْطه وفُنونِهِ انضوتْ أُسرنا وبيوتنا ، فإذا نحن بعد أقل من نصف قرنٍ من الزمان خليط من الناس ليس لهم فى ذواتهم وأفرادهم من الإنسان إلا شَكْله ، ومن القيم إلّا رسمها التاريخىّ للذكْرى فقط ، حروفٌ جامدة وكلمات متحجرة لا تمسُّ القلُوب ، ولا تخالط الوجدان ..

وإذا بنا أيضاً حشْدٌ بَشَرىّ كقطيع ضَلَّ سبيلَهُ وتاه فى مهامِهِ البيْداء ، ليس له (راعٍ) يقودُهُ ويهديه سواء الصراط ، ويبلغ به غاية الأمان والاطمئنان .

أين النظام الواحد لِلأُمّة الواحدة ؟

وأين القيادة الواحدة ؟.

أخى المسلم وأُختى المسلمة :

لا نُريد أن يَجْمح بنا الخيال أو تشتطّ بنا الكلمة ، أو نسرحَ مع السارحين فى أوهام الأحلام ، أو نسعى وراء المستحيل ... أبداً ، ولكننا « **أُمّة** » فى الحقيقة !! تاريخاً وواقعاً ...

أمةٌ لها « **كتاب** » ؛ ينتظم كُلَّ شئون الحياة ، ما فرّط فيه من شيء ينبثق نظامه عن معتقدٍ فطرىّ سليم لا يزيغ ولا يضلّ ، لا يُكبل العقل ...، ولا يحجر العاطفة ...، ويتّسق فى اعتدالٍ واتّزانٍ مع مسيرة الإنسان على دروب الحياة ، رُقيّاً وإبداعاً .

وأمةٌ ، لها « **قيادة** » ... حيّةٌ فى القلُوب المؤمنة ، وليْست مجرَّد شطحةٍ صوفيّةٍ تستلهم الصلاة عليْها والتسليم فى انكبابٍ عاطفىٍّ مجرّد !؟.

و « محمد بن عبد الله » ﷺ قائدُنا وأُسْوتنا ، ورائدنا إلى الحق وإلى الجنّة ، إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ولابُدَّ من فِهْم شخصيّته ﷺ على هذا الأساس ، سواء كُنّا قاعدة اجتماعيةً عريضة ، أوْ مَسْئولين على مقاعد السُّلْطة .

فَلِكُلّ مِنّا مَوْقفه بين يدى الله يَسْأله عمّا آسْتَرْعاه ؛ ولنتَصوّر هذا الموقف !!! بكُلّ المشاعر والجوارح ، بكل الإحساس المادّى والمعنوىّ ، وفى تَجرُّدٍ خالصٍ عن طينِ الأرض ...

أخى المسلم وأختى المسلمة :

لِنَنْتبه أن دَوْرة الحياةِ مستمرة ، وأن تعاقُب اللَّيْل والنهار قائمان أبداً ، فَلْنبادِر إلى العمل الإصلاحىّ المثمر ، ولْنتّق الله فى أُسرنا ومُجْتمعنا بما ميّزنا الله تعالى به ، ولْنَرْتَفِعْ إلى المقام الذى بوأنا إياه ...، قَبْل فواتِ الأوان .

إن المنحنى خطير ، والمُفترق أشد خطراً وأعظم ضرراً ، كما لا نرتابُ فى أننا نشكو سُوء الواقع ، ونألم من مرارتِه ، فهل أدْركنا إلى أين المصير !!؟.